

تنوعات صوت القاف في منطوق ولاية تلمسان

الأستاذة: عايد عمارية



جامعة تلمسان

Résumé

Cette étude se veut être une recherche sur les variations phonologiques que représente le son [q] présent du parler des habitants natifs de la wilaya de Tlemcen. Il se distingue par quatre prononciations ; commençant comme un son uvulaire occlusif sourd [q] au son vélaire qui se peut être sonore [g] ou sourd [k], émouvant au dernier cas quant on l'entend un occlusif glottal [ʔ] .

En fait , ces variations ne sont que des expansions des dialectes Arabes anciens, ou qu'un effet qui remonte aux langues sémitiques.

Abstract

This paper aims at presenting the different realizations of the [q] sound as they are heard by the native speakers of Tlemcen . It varies between four cases; starting as a voiceless uvular plosive [q] to a velar sound that could be voiced [g] or devoiced [k], moving to the last case where it is pronounced as a total glottal stop [ʔ].

In fact, these phonological variations of [q] sound are whether expansions of the old distinct Arabic dialects, or an effect that goes back to Semitic languages.

صور نطق صوت القاف تمتد إلى اللهجات العربية القديمة، ومنها ما كان نتيجة هذه دراسة متواضعة الهدف منها الكشف عن تنوعات صوت القاف في منطوق ولاية تلمسان، إذ الظاهر من المسموع في هذه البيئة المترامية الأطراف، أن بعض التأثير بنطق الجماعات البشرية التي استقرت بهذه الرقعة الجغرافية بعد سقوط الأندلس، ومنها ما كان نتيجة تأثير الغزو الأوروبي الذي عرفته المنطقة عبر التاريخ. وعليه فإنّ صوت القاف كما نعهده في الفصحح ممثلا في نطق أهل التجويد والقراءة المحسنين، وكما أكده قدماء النحاة واللغويين في وصفهم له، فإنه ينطلق من أقصى اللسان وما يقابله من اللهأة، وهو صوت مهموس شديد مستعل يتم إطلاقه بإلصاق عكدة اللسان باللهأة التصاقا محكما لحظة من الزمن ثمّ ينفك العضوان ليخرج الصوت شديدا مدويا مشكلا القاف. وذلك كما تبرهن عليه التجارب الصوتية، غير أنّ هذا الصوت عرف تحولا في مساره التاريخي على ألسنة الناطقين

به فهو كما جاء في وصف النحاة واللغويين والقراء صوت مجهور شديد، وقد عدّه القدامى من أصوات القلقلّة، وذهب بعض الدارسين إلى تخطئة القدماء في وصف هذا الصوت، لأنّ التجارب الصوتية الحديثة أثبتت همسه.

ومن هنا فقد يكون القدامى قد وصفوا صوت المكاف أي الصوت السامي الذي شاع في أغلب اللغات السامية وعرفته كذلك بعض اللهجات العربية القديمة كلهجة تميم وهو ما يرمز إليه بالخط الفارسي (گ). وقد وصفه سيبويه وعدّه من الأصوات المسترذلة التي لا يقرأ بها القرآن ولا ينشد بها الشعر، ومن هنا قد يكون القدماء خلطوا بين الصوت اللهجي وما كان عليه في الفصحى.

وبناء على ما فات " لو تصورنا أن نطقنا للقاف- على نحو ما نتلفظ بها في الفصحى المعاصرة- يمثل الوضع القديم لنطقها، فهذا يعني أنّها مهموسة، بمعنى أنّ الوترين الصوتيين لا يهتزان عند نطقها، ومن هنا فإنّ نطقنا لها الآن في الفصحى لا يتفق وصفة الجهر ولذا فإنّنا نستبعد أن يكون نطقنا المعاصر لها محققا الوصف القديم." (1)

ومّا سبق يمكن افتراض أنّه كانت هناك لهجتان في القديم، إحداهما كانت تستخدم صوت القاف القصي (الجاف: Ga))، وتمثل الصورة التي كانت تنطبق عليها تمام الانطباق جملة وصف القدماء (وبعض المحدثين)، وهي أيضا تلك الصورة السمعية التي يشيع التقاطها في منطوق كثير من المناطق العربية. في حين استساغ الناطقون في اللهجة الثانية نطق القاف المهموسة، وبهذا أخذ قراء القرآن الكريم أو جمهورهم. (2) وما زال لهاتين الصورتين من نطق القاف امتداد حتى يومنا هذا في لهجاتنا الحالية. (3)

أمّا نطق القاف مجهورة، فقد ذكرها ابن فارس في كتابه الصحاح ونسبها إلى قبيلة تميم بقوله: " فأما بنو تميم فإنّهم يلحقون القاف بالكاف وتغلظ جدّا، فيقولون: القوم فيكون بين القاف والكاف. وهي لغة فاشية فيهم، قال شاعرهم:

ولا أگول لگدر المگوم قد نضجت ولا أگول لباب الدار مگفول (4)

ومّا يؤكّد هذا النطق كتابة البيت بالكاف الفارسية، وهذا ما أكدته كتب اللغة والمعاجم العربية، إذ رسمت هذه القاف بالكاف لعدم وجود رمز خاص بالقاف التميمية- التي تسمّى أحيانا القاف المعقودة- في الخط العربي. لكنّهم أشاروا إلى أنّ هذا الصوت ليس بصوت الكاف، وإنّما هو صوت بين الكاف والقاف وهي لغة في تميم. (5)

أمّا الصورة الأخرى للقاف أي القاف التي كالكاف والتي مازال لها حضور في لهجاتنا الحالية " فهي مسموعة في فلسطين، فهم فيقولون مثلاً: كال أي قال"⁽⁶⁾ قريبة مما نسمعه على ألسنة أهالي الغزوات بالجزائر وبعض جهات الشرق الجزائري وبخاصة منطقة جيجل.⁽⁷⁾

ويرجح ممّا سبق أنّهما (أي القاف والكاف) كانا صوتين متشابهين من حيث الوقع على الأذن ممّا سبب نوعاً من الخلط بينهما ، فالأولى تمثل نطق صوت القاف نطقاً خاصاً والثانية مظهرها من مظاهر إبداله، إذ تبدل القاف كافاً عند غير التميميين، فهم يقولون في قشطت التميمية: كَشطت، وفي قافور كافور.⁽⁸⁾

بينما نسجل الصورة السمعية الرابعة لصوت القاف، وهو إخراجها همزة في منطوق بعض الحواضر العربية في مشرق الوطن العربي ومغربه، كالقاهرة وفاس والقيروان وتلمسان.⁽⁹⁾

كلّ هذه التنوعات الصوتية الأربعة سمعت في تلمسان⁽¹⁰⁾ على اختلاف مناطقها، إذ تنوعت تركيباتها البشرية فسكانها الأصليون من الأمازيغ⁽¹¹⁾ ومن العرب الفاتحين، أضف إلى هذا تلك العناصر الوافدة من بني هلال وبني سليم وبني معقل القادمين من صعيد مصر، أيام السلطنة الفاطمية⁽¹²⁾ والعرب البلديين⁽¹³⁾ وبقايا من الروم⁽¹⁴⁾ وعنصر الأفاقة⁽¹⁵⁾ وعنصر الزنوج⁽¹⁶⁾، ويضاف إلى كل هذا النازحون من الأندلس بعد سقوطها من المورسكيين أو المواركة⁽¹⁷⁾ واليهود⁽¹⁸⁾ الحاملين معهم لهجاتهم التي كانت مزجاً من العربية والإسبانية ولغة الرومان.⁽¹⁹⁾

إنّ صوت القاف لم يثبت في منطقة تلمسان على حالة واحدة، فهو كما ذكرنا سابقاً عند العرب القدامى "من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى"⁽²⁰⁾ هذا من حيث المخرج، أمّا من حيث صفته فقد وصفه النحاة وأهل القراءات بالجهر والاستعلاء.⁽²¹⁾ أمّا حالياً بمنطقة تلمسان فالقسم الشرقي من الساحل ينتشر فيه نطق القاف مهموساً ويضم مناطق هنين وبني خلاد وندرومة وبني وارسوس وعين الكبيرة وعين فتاح وفلاوسن⁽²²⁾، ويمتد إلى المناطق الشمالية الغربية، ولكنّه يتميز عند بعضهم بشبه الهمس حتّى يكاد يسمع شبه كاف وذلك في مناطق مرسى بن مهدي، أي مسيرة الفواقة و يصل إلى باب العسة وجباله وسواني⁽²³⁾. ويمتد هذا النطق المهموس لصوت القاف إلى مناطق بني سنوس في الجهة الغربية الوسطى للولاية وكذلك العزابل بقراها المختلفة، أضف إليها قرى الخميس وبني حمو والفحص ومنطقة بني بجدل⁽²⁴⁾، لكنّ هذا الصوت إمّا أن يكون شديداً في إخراجها أو يخرج قافاً مهموساً شبيهاً بالقاف الفلسطينية أي بين القاف الفصيح والكاف.، وذلك في مثل قولهم: "قال، سوق، قدام، قطع، قُدّاش، قُتل.."⁽²⁵⁾ في ما معناه بالفصحى (قال، سوق، قدام، قطع، كم، قتل..).

وتوصف هذه الصورة السمعية للقاف في اصطلاح الدرس الصوتي الحديث أنّها صوت لهوي، انفجاري، مهموس، ورمزه (q) في الكتابة الصوتية.⁽²⁶⁾ ويؤكد هذا الوصف الدكتور إبراهيم أنيس قائلاً: "القاف كما ينطق

بها الآن في مصر بين مجيدي القراءات صوت شديد مهموس، رغم أنّ جميع كتب القراءات قد وصفتها بأنها أحد الأصوات المجهورة. وقد تطوّرت القاف في اللهجات العربية الحديثة تطورا ذا شأن، لا نستطيع معه أن نؤكد كيف كان ينطق بها بين الفصحاء من عرب الجزيرة في العصور الإسلامية الأولى. (27)

أمّا هذا الصوت في اللغات السامية، فيصفه كارل بروكلمان بقوله: "صوت مهموس شديد يتكوّن عند الطبق (velar)". (28) لكنّه ضاع وتحول في البابلية على الأقل إلى الصوت الغاري المجهور. (29)

إنّ هذا النطق المهموس لصوت القاف في اللغة العربية الفصحى اليوم، ينسبه جان كانتينو إلى اللهجات الحضرية، لأنّ أغلبية المثقفين هم من أهل المدن، وينتشر في مقاطعة مدينة الجزائر وأهل شرشال ودلس والبليدة ومليانة والمدية وتنس، وهي مدن قديمة، كما ينتشر بالمغرب الأقصى. (30)

إنّ التنوع الثاني لصوت القاف، أي تحوّلَه إلى صوت الكاف الذي ساد في بقية المناطق الشمالية الشرقية والغربية للولاية كالغزوات ودار يغمراسن والسواحلية وسوق الثلاثا وتيانا وتونان ومسيردة التحاتة (31)، أمّا مرسى بن مهدي فسمع فيها النطقان، وذلك في مثل قولهم: "كُعد وكال وسوُك وكُطع وفوُك وصدكّة"، (32) أي (أقعد وقال وسوق وقطع وفوق وصدقة..) كما هو معروف في الفصحى.

ويمكن تعليل ما أصاب القاف من تطور إلى أنه تمّ بانتقال مخرجه إلى الأمام فصادف صوت الكاف المهموس، فهما يكادان يكونان من مخرج واحد إذا وسعنا دائرة المخرج لتشمل الطبق كله. (33) وقد نسب هذا النطق إلى القبائل العربية القديمة على حد ما أورده أحد الدارسين، فقال: "روي أنّ بعض قبائل اليمن وبعضا من تميم، كانوا ينطقون بالقاف جيما قاهرية، أو مهموس الجيم القاهرية أي الكاف، ونطق القاف كافا أحدث من نطقها جيما قاهرية، إذ يظهر أنّ مخرجها قد انتقل في بعض لهجات اليمن من موضع اللهاة إلى أقصى الحنك، فصادفت هناك نظيرا لها في الجهر والشدة، وهي الجيم القاهرية، ثمّ همست فأصبحت الكاف". (34)

وعدّ ابن جنّي القاف والكاف لغتين لقوله: "قال الفراء: قريش تقول: كُشِطت، وقيس وميم تقول: قُشِطت، بالقاف. وليست القاف في هذا بدلا من الكاف، لأنّهما لغتان لأقوام مختلفين". (35) وأبدل بين القاف والكاف لقول أبي عمرو: "يقال: أعرايُّ كُحَّ وأعرايئة كُحَّة تريد فُحَّ وفُحَّة. ومال الأصمعي إلى الإبدال ههنا مرجحا له بقوله: الفُحُّ والكُحُّ الخالص وأن الكاف في (كُحَّ) بدل من قاف فُحَّ، لأنّ أبا زيد حكى في جمعه: أقحاح ولم نسمعهم قالوا: أكحاح". (37) ومنهم من قرأ القرآن بإبدال القاف كافا، فقرأ بعض الأعراب قوله تعالى: {فأمّا اليتيم فلا تكهر} 37، والكهر الانتهاز في هذا الموضع. (38)

وإذا عدنا إلى اللغات السامية، فإننا نجد مثل هذا الإبدال في العبرية، فهم يقولون مثلاً: "كشكش أي حبط ونقر وينطقونها بإبدال الكافين قافين، فيقولون: قَشَقَش بالمعنى ذاته.⁽³⁹⁾

وعلى غير عادة الإبدال في اللغة الفصحى، فإن صوت القاف أو الكاف قد يبدلان خاء في كلمات معينة، نحو: (دَرُوخٌ ودُوخٌ وبُوَاخَةٌ وفَاوُخٌ)⁽⁴⁰⁾ في مقابل نطق آخرين (دَرُوْكَ أو دروق، دُوْكَ أو دُوْوقٌ وبُوَاقَةٌ وفَاوُوكٌ أو فَاوُوقٌ)، وينظر هذا في الفصحى الكلمات الآتية: (الآن وفيما بعد وبالون ومتى)، وهذا النطق سائد عند أهالي المناطق الشمالية الساحلية والداخلية من الولاية، الشرقية منها والغربية وبعض قرى بني سنوس كنافسرة.

أما تفسير هذا الإبدال فمرده إلى تأثير اللغة العبرية، لأن طوائف من اليهود قد سكنوا هذه المناطق حين فرتوا من الأندلس وانتشروا بمناطق تلمسان المختلفة. فيقال في العبرية: " (هلخ)، أي هلك ولهما نفس المعنى أي الزوال والذهاب، ويقال أيضاً: (بخأ) بمعنى بكى".⁽⁴¹⁾ لكن صوت الخاء هذا في نطق اليهود يختلف عنه في نطق العربية الفصحى، ففي إخراجها يرتفع مؤخر اللسان إلى أصل الحنك الصلب فيخرج الصوت بما يشبه صوت (ch) في الألمانية.⁽⁴²⁾ كما يشبه نطق الخاء في العبرية نطقه عند السريان فهو عبارة عن كاف رخوة. وإبدال الكاف خاء يذكرنا بالنطق التوسكاني للكلمات الإيطالية التي تبدأ بالكاف (ca) في مثل قولهم: (casa) فتنتطق عندهم: (ħaza) بالحاء وتعني "maison".⁽⁴³⁾

وإذا انتقل صوت القاف بمخرجه إلى الأمام، فإننا نجد أقرب المخارج إليه مخرج الجيم القاهرية (الجيم السامية) والكاف " فلا غرابة أن تتطور القاف إلى أحدهما."⁽⁴⁴⁾ وهذا ما حدث فعلاً في عاميات ولاية تلمسان، فقد سبق أن ذكرنا تحوُّله إلى كاف مهموسة لكن نطقه جيماً سامية قد غطى معظم مناطق الولاية الداخلية الغربية المتاخمة للحدود المغربية، كمغنية المدينة وحمام بوغرارة وسيدي مجاهد⁽⁴⁵⁾، وكذا جميع المناطق المجاورة لمغنية في حدودها مع منطقة بني بوسعيد⁽⁴⁶⁾، وحينها تسمع من أهاليها صوت القاف المجهور لكنه أكثر شدة في إخراجها على خلاف أهل مدينة مغنية، إذ تسمع بعض التراخي في نطقه بتأثير من النطق المغربي، وبمجرد عبور حدود بني بوسعيد، يعود صوت القاف إلى همسه وذلك في مثل قرى سيدي مبارك والزوية ورتان ومريقة⁽⁴⁷⁾. ويمتد نطق القاف جيماً سامية إلى مناطق بني سنوس التي لا تستخدم القاف المهموس، كقرى زهرة وبني عشير وأولاد موسى وبوحمامة⁽⁴⁸⁾ ويشمل جميع المناطق الشرقية للولاية التي تضم الدوائر التالية (الرمشي، وسبعة شيوخ، والفحول، وعين يوسف، وبن سكران، والعمير، وسيدي العبدلي، وعين نخالة، وأولاد ميمون، والشولي، وبني صميل، وعين تالوت)⁽⁴⁹⁾. وكذا جميع المناطق الداخلية المحيطة بتلمسان المدينة، سواء من ناحية الشمال أو الجنوب أو من ناحية الشرق أو الغرب، كمناطق سبدو و تيرني وعين غرابة وصبرة و بوحلو وأولاد رياح وزناتة والحناية وعين فزة.⁽⁵⁰⁾

ويتبع أهالي المناطق الجنوبية من الولاية نطق من ذكرناهم ممن ينطقون القاف جيما سامية أي مجهورة، فلا فرق بينهم إلا في بعض التفخيم الذي نسمعه عند أصحاب المنطقة الجنوبية للولاية كمناطق البويهي، وسيدي الجيلالي، والعريشة، والگور⁽⁵¹⁾، وجزءا من عين تالوت). وذلك في مثل قولهم: (صوگ، وگدّاش، وفوگ، وگريب، وگول، وياگابل، وطريگ، وياگصرو⁽⁵²⁾ وياکافي هذا في الفصحى: (سوق، وکم، وفوق، وقريب، وقل، ويقابل، وطريق، ويسمرون أو يسهرون)، وينضاف إلى هذه المناطق في نطق القاف المجهور منطقة مسيرة الفوافة من المناطق الشمالية لأنها احتوت على التنوعين معا.

أما تفسير هذا الانتقال من القاف المهموس إلى القاف السامية هو: " مجرد انتقال في مخرجها قليلا إلى الأمام، ولكون القاف في الأصل صوتا مجهورا فقد تم إبداله جيما التي هي صوت مجهور. ويعدّ تطوّر القاف إلى الجيم من الأدلة على أنّ القاف كانت في الأصل القلمم مجهورة، وهو ما يعرف في اللغة العبرية بالگيمول"⁽⁵³⁾

ومثل هذه القاف وجدت عند العرب القدامى، وهو الصوت الذي بين القاف والكاف والجيم وهي لغة سائرة في اليمن مثل "جمل" إذا اضطرّوا قالوا "گمل"، كما ذكرنا سابقا أنّها لغة بني تميم.⁽⁵⁴⁾

وعلى هذا الأساس فإنّ هذه " الصورة من نطق صوت القاف فهو وقفة انفجارية مجهور من أقصى الحنك. وهي بهذا تختلف عن الصور السابقة الجارية على ألسنة المتخصصين، ورجال القراءة الآن في شيئين: مخرج النطق فالأولى لهوية وهذه قضية، وفي الجهر والهمس، فالأولى مهموسة وهذه مجهورة."⁽⁵⁵⁾

وإذا قلنا أنّ صوت القاف ينطق جيما سامية فهذا من الناحية النطقية لا غير ، أما من حيث الوظيفة فإنّها تختلف عنها تماما " في بنية الكلمة العربية وطرائق توزيعها في النظام الصوتي. ورمزها الصوتي المقرر هو (G). في حين أنّ رمز الجيم السامية هو (g)، بالتفريق بين الرمزین بمجرد التكبير و التصغير في الحجم."⁽⁵⁶⁾

ومن غرائب حوادث التاريخ أنّ هذا النطق المجهور للقاف شاع في الأندلس " منذ القرن السادس الهجري، وعرف به أهل البادية في مصر أيام المماليك حتّى كان هؤلاء يطاردون في المعارك ويميّزونها بهذه الگاف، فكان إذا ادّعى أحد منهم أنّه حضريّ قيل له : قل دقيق، فإن قال دقيق بالگاف لغات العرب قتل، وإن نطقها بالقاف المعهودة أطلق."⁽⁵⁷⁾ أي إذا نطقها مجهورة قتل، وإن نطقها مهموسة أُخلى سبيله.

ولم يبق من تنوّعات نطق صوت القاف إلا ما يخصّ منطقة تلمسان المدينة إذ يخرجونه همزة خالصة. وهذا يعني أنّه تعمّق في مخرجه إلى الورا فلم يصادف " من الأصوات ما يشبه القاف إلا الهمزة، لوجود صفة الشدة في كلّ منهما."⁽⁵⁸⁾ أما باقي أصوات الحلق والحنجرة كلّها رخوة. ولقد عدّها كاتنينو لهجة حضرية تضاف إلى القاف

المهموس. وإبدال القاف همزة من خصائص نطق الحواضر العربية كحلب واللاذقية ودمشق وبيروت وصيدا والإسكندرية والقاهرة.⁽⁵⁹⁾ ومن نماذج هذا النطق قولهم: "آل في قال وألب في قلب، وأهوة في قهوة.." ⁽⁶⁰⁾

والظاهر أنّ القاف لا تبدل همزة في جميع تكلماتهم، وإنما نسمعها أحيانا قافا مجهورة أي كالكاف السامية أو كما يسميها البعض القاف المعقودة، فهي نظيرة الكاف المهموسة، ومن نفس مخرجها، وذلك في مثل قولهم: "حگوډي، و بگرة و گمره" ⁽⁶¹⁾، مما يرادف في الفصحى (حاقد، وبقرة، وقمر). لكنّها مفردات قليلة بالنسبة إلى الكل. وهي كما يبدو دخيلة عليهم، اقترضوها من اللهجات الريفية⁽⁶²⁾.

أما علّة إبدال القاف همزة، فيردّها المستشرق الألماني برجشتراسر إلى ذوق العصر" مثال ذلك في اللغة العربية، أنّ بعض أهل القاهرة، كان استخشن نطق القاف واستغلظه، فأبدله بالهمز. وهذه العادة سادت بين أهل القاهرة الخاصة ثمّ العامة، ثمّ سرت منها إلى بعض المدن الكبيرة كدمشق، ثمّ إلى أصغر منها، كالقدس الشريف. فهذه أيضا علّة مهمّة لتغير اللغات لكنا كثيرا ما لا يمكننا إثباتها، وخاصة في الأزمان السالفة التي لا نعرف كيف كان ذوق أهلها. ⁽⁶³⁾

لقد ساد هذا النطق معظم البلاد العربية كسوريا ولبنان ومصر والأردن، وسقط غالبا نطق القاف ولم يبق مكانه إلا همزة محققة⁽⁶⁴⁾.

أبدل العرب القدامى بين القاف والهمزة بدليل ما جاء في كتاب الإبدال لأبي الطيّب اللغوي، قوله: "أشبهه أشبًا وقشبه يقشبه قشبا: إذا لامه وعابه." ⁽⁶⁵⁾ وما روي عن أبي عمرو: "الأفز بالزاي الوثبة بالعجلة، والقفز: الوثب، يقال: قفز يقفز قفزًا وقفزانا: وثب. ويقال: القوم زهاق مائة وزهاء مائة: أي هم قريب من ذلك في التقدير، كقولهم: زهاق مائة وزهاء مائة." ⁽⁶⁶⁾

يمكن إرجاع هذا الإبدال إلى العبرية خاصة إذا علمنا أنّه كان يقطن بتلمسان جالية يهودية، يمتد تاريخها إلى العهد الروماني. فقد كانت تسكن وسط المدينة وما المقبرة اليهودية المتواجدة بحي قباسة إلا دليل على ذلك، بما قبر الحاخام افرايم انقوة الذي يُعدّ مزارا للحاليات اليهودية في العالم. ⁽⁶⁷⁾ ويؤكد كوهان مارسيل أنّه يصعب على اليهود الذين كانوا يقطنون الجزائر العاصمة إخراج صوتي القاف المهموس أو المجهور أي القاف السامية، ولهذا أبدلوه وقفة حنجرية أي همزة، وانتشر خاصة عند كبار السن منهم حتّى أصبحوا عرضة للسخرية بسبب هذا النطق. ⁽⁶⁸⁾

و"هناك تفسير آخر له قبول من الناحية الفسيولوجية يقال إنّ القاف كانت أحيانا مهمّزة (glottalization) أي مشوبة بمحز وبمرور الأيام تلاشى الصوت الأصلي (القاف) وصار التهميز همزا خالصا، وامتدّ أثره حتّى الآن، كما نلاحظ في نطق أهل المدن في مصر وغيرها من البلاد العربية." (69)

إنّ هذا التطور الحاصل لصوت القاف في منطقة تلمسان المترامية الأطراف كما يراه أنصار نظرية السهولة تطور غير إراديّ فهو يحدث دون أن يشعر به المتحدث، ودون أن يعمد إليه أصلا، لأنّه ينطق بالصوت الأسهل دون الصعب ويخيّل إليه أنّه ينطق بالصوت الأصلي لم يحدث فيه تغيير، إذ العملية لاشعورية، ولهذا تترك أثرا في تطور كثير من أصوات اللغات، وهذا لا يتأتّى في مدة وجيزة، وإنّما يظهر أثره جليا بعد أجيال (70).

أمّا عن جهر الصوت أو همسه فإنّه يعود إلى البيئة التي ينشأ فيها هذا الصوت فإن كانت فسيحة الأرجاء وجب جهر الصوت حتّى يكون مسموعا، وإن كانت البيئة تجمعات سكنية مكثفة فإنّه يهمس لأن القرب يحقق الهدف المنشود، " ولا شك أنّ حياة السكينة والهدوء في البادية لا تتطلّب نشاطا كذلك الذي قد تحتاج إليه حياة الحضر، لما لها من صخب وأمور دنيوية، ولا يستطيع المرء أن يشقّ طريقه بنجاح في حياة الحضر إلّا بعد أن يظهر نشاطه في عمله، وأن يبذل جهدا للحصول على موارد رزقه. أمّا البدوي الذي يقنع بالقليل، ويخلد إلى السكينة والهدوء، فحياته مليئة بالتراخي، وقد انعكس هذا على نطقه، فهو يقتصد في الجهد العضلي وفي التنفس، ويميل إلى الاختصار في القول، فهو لا يكاد يبدأ الكلام حتّى ينتهي منه، لهذا كلّه صبغت لهجات البدو بصفات صوتية خاصة تخالف لهجات الحضر في المدن." (71)

هكذا يصبح المنطوق في هذه العاميات سليقة أي عادات مكتسبة لا أثر للوراثة فيها، يلقنها الطفل منذ ولادته، وينشأ عليها، فيؤدّبها كلّما عنّ له القول، ولا يجيد عنها في حديثه كما لا يشعر بخصائصها، بل تصدر عنه دون تكلف أو تعمد. (72)

مما سبق، يظهر لنا جليا أنّ تنوعات صوت القاف في منطوق ولاية تلمسان، كما نسمعها على ألسنة الناطقين بها، ما هي إلّا امتدادات للهجاتنا العربية القديمة المختلفة أو تأثير يعود إلى اللغات السامية.

هوامش الدراسة:

- 1 إسماعيل عمارة، بحوث في الاستشراق واللغة، دار البشير، عمان، ط 1، 1996، ص 205.
- 2 ينظر كمال بشر، علم الأصوات، دار غرب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، د ط، ص 281-282.
- 3 في هذا الصدد يقول حفي ناصف أفندي: "وعلى هذا فيمكن أن ننسب إلى قريش إما بالنسب أو الولاء أو المخالطة كل من ينطق من أهل مصر بالقاف الصريحة كسكان مديرية الفيوم وبعض مديرية الجيزة وأهل أبيار ورشيد وضواحيها والمحلة الكبرى والبرلس و بلبيس من الشرقية والخصوص من القيلوبية وأن نحكم على كل من يتكلم بالقاف المشوبة بأنه ليس من قريش كأهل الصعيد ومديرتي الشرقية والبحيرة إلا قليلا و بعض مديرية المنوفية وجميع سكان بوادي مصر." كتاب مميزات لغات العرب وتخريج ما يمكن من اللغات العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك، مطبعة بولاق المحمية، ط 1، 1886، ص 5.
- 4 ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها و سنن العرب في كلامها، علق عليه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1997، ص 30.
- 5 ينظر تشيم رابين، اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية، ترجمة د/ عبد الكريم مجاهد، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط 1، 2002، ص 224. وينظر غالب فاضل المطلبي، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، 1978، د ط، ص 104.
- 6 ضاحي عبد الباقي، لغة تميم، دراسة تاريخية وصفية (مجمع اللغة العربية لجنة اللهجات)، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1985، د ط، ص 101.
- 7 بلقاسم بلعرج، الدارحة الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى، دراسة لسانية لهجة بني فتح (جيجل)، مديرية النشر لجامعة قلمة، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، 2008، د ط، ص 20.
- 8 غالب فاضل المطلبي، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، ص 105. و" يبدو أنّ الأمثلة قليلة في هذا الباب مما يرجع أنّ هذا الإبدال كان قليلا ولعلّه يشبه إبدال العراقيين في عصرنا هذا الكاف من القاف المعقودة في كلمتين هما (وكت) في وقت و(كتل) في قتل على حين أنّهم ينطقون القاف في الألفاظ الباقية قافا معقودة (تميمية)". نفسه، ص 105.
- 9 كمال بشر، علم الأصوات، ص 283.
- 10 تقع تلمسان في الشمال الغربي للجزائر، يحدها شمالا البحر المتوسط، وجنوبا ولاية النعامة، وشرقا ولايتا عين توشنت وسيدي بلعباس، أما غربا فالمغرب الأقصى وهي تضم اثنين وعشرين دائرة وثلاثا وخمسين بلدية.
- 11 ينقسم البربر إلى طائفتين، طائفة البربر الحضرم المعروفين بالبرانس الذين يسكنون النواحي الخصبية والسفوح المزروعة، وهؤلاء يعملون بالزراعة والصناعة، وطائفة البربر البدو المعروفين بالبتر الذين يقيمون في الصحاري والواحات وهؤلاء يعيشون على الرعي. ينظر عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرتهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، 2000، د ط، ص 116-117-118.
- 12 ينظر عبد الرحمان بن محمد الجليلي، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية، 1995، د ط، ص 260/2.

- 13 وهم جماعات من المهاجرين العرب غير العسكريين، أو غير الرسميين إثر استمرار حركة الفتح الإسلامي. ينظر الرفيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق د/ محمد زينهم عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط 1، 1994، ص 20.
- 14 وهم البيزنطيون الذين وجدوا في البلاد إذاك وكانوا حكامها، ومع الفتح العربي اختفى معظمهم ولم يبق منهم إلا جماعات قليلة كانت تقيم على السواحل ومدنها، وأغلبهم اعتنقوا الإسلام وذاوبا في سكان البلاد. ينظر الرفيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، ص 10-11-19.
- 15 وهم أحلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية، يعملون بالزراعة والصناعة وكانوا خدما للروم. ينظر نفسه، ص 19.
- 16 وهم الذين قدموا من السودان وموريتانيا ومن الصحراء الوسطى بأفريقيا، كانت لهم اتصالات برجال من الجنس الأبيض خاصة في أفريقيا الشمالية. ينظر دنيس بولم، الحضارات الأفريقية، ترجمة علي شاهين، دار الحياة، بيروت، 1974، د ط، ص 17.
- 17 وهم العرب الأندلسيون الذين تعرضوا للاضطهاد من قبل الحكام الأسبان زمن سقوط الأندلس، وأجبروا على التنصر ورغم ذلك أمروا أن يغادروا الأراضي الإسبانية، يسموئهم مورسك *mauresque*، اندمجوا في الأسبان والبرتغال وتكلموا لغتهم ولكنهم حافظوا على لغتهم العربية من جهة أخرى، فكتبوها بالأحرف اللاتينية، وتسمى "الخميادو" ولا تزال فيها كتب كثيرة مكتوبة بالأحرف اللاتينية وقد أصبحت لغة جديدة غير العربية لما دخلها من التحريف والتصحيف. ينظر محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، دار الكتاب المصرية، 1985، د ط، ص 42.
- 18 وهم اليهود الذين كانوا يقطنون الأندلس جنبا إلى جنب مع المسلمين، والذين اعتنقوا المسيحية اضطرارا منهم كما حدث للمورسكيين، فقد قدر عدد من نفي من أسبانيا في تلك العصور ألفان من الألوف اليهود وثلاثة ملايين من المسلمين أو من منتصرينهم، عدا من استرق منهم أو قضى نحبه تعذبا وحرقا. وذهبت بهم السفن إلى وهران في الجزائر ونزلوا في جوار وحماية سلطان تلمسان. ينظر عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، إنترنشيونال برس، القاهرة، 1983، د ط، ص 183. وينظر محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش بالأندلس، ص 67-69.
- 19 هناك شهادة لا تدحض عن تغلغل الرومانية (وهي الناتجة عن اللهجة اللاتينية الأيبيرية) في العربية العامية بشبه الجزيرة، فهي مدونة في المعاجم العربية اللاتينية أو العربية القشتالية التي وضعت في إسبانيا في العصور الوسطى. وكذلك في العديد من الكلمات المتبقية من أصل روماني، والتي يمكن إحصاؤه في التعابير العربية في شمال مراكش والمدن الكبرى ذات التقليد الإسباني، كفاس وتطوان وطنجة. ينظر ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، مكتبة الحياة، بيروت، د ت، د ط، ص 87.
- 20 سيبويه، كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 3، 1988، ص 433/4.
- 21 لقول إبراهيم أنيس: " نستنتج من وصف القدامى لهذا الصوت أنه كان يشبه إلى حد كبير القاف المجهورة التي نسمعها الآن بين القبائل العربية في السودان فهم ينطقون بها نطقا يخالف نطقها في معظم اللهجات العربية الحديثة إذ نسمعها منهم نوعا من الغين." وعلى هذا الوصف تكون مجهورة وفي نفس الوقت مرققة. الأصوات اللغوية، مكتبة مصر ومطبعتها، د ط، د ت، ص 72.
- 22 ينظر هذه المناطق خريطة تلمسان ص 11
- 23 ينظر هذه المناطق الخريطة ص 11
- 24 ينظر هذه المناطق الخريطة ص 11
- 25 هذا حسب ما سمعته من أفواه الناطقين به من سكان هذه المناطق.
- 26 ينظر كمال بشر، علم الأصوات، ص 385.

- 27 الأصوات اللغوية، ص. 73
- 28 فقه اللغات السامية، ترجمة د رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، 1977، د ط، ص. 39
- 29 ينظر نفسه، ص. 16
- 30 ينظر دروس في أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، نشریات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، 1969، د ط، 107-109.
- 31 ينظر هذه المناطق الخريطة ، ص 11
- 32 هذا ما جمعه من ألسنة الناطقين به في هذه المناطق.
- 33 ينظر أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، 1997، د ط، ص. 342
- 34 إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، دار الفكر الإسلامي، الإسكندرية، مطبعة الرسالة، 1999، د ط، ص 121-122.
- 35 سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن هندراوي، دار الكتاب العربي، د ط، د ت، ص 277./1
- 36 نفسه، ص 279./1
- 37 سورة الضحى الآية. 09
- 38 ينظر ربحي كمال، الإبدال في ضوء اللغات السامية، دراسة مقارنة، جامعة بيروت، 1980، د ت، ص. 143
- 39 ينظر نفسه، ص. 163
- 40 هذه الأمثلة مأخوذة من تسجيلي بهذه المناطق.
- 41 ينظر ربحي كمال، الإبدال في ضوء اللغات السامية، ص 163-41
- d'Alger ; Paris , librairie ancienne H, champion, Voir Marcel Cohen , le parler arabe juifs42 . 1912,p29-30
- 43 Voir Michel-T-Feghali , le parler de Kfarabida (liban-syrie) essai linguistique sur la phonétique et la morphologie d'un parler moderne-Paris, h imprimerie nationale Ernest Leroux, 1968,p31.
- 44 إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص. 73.
- 45 ينظر هذه المناطق خريطة تلمسان ص 11
- 46 أنظر الخريطة ص 11

- 47 تقع هذه القرى في الحدود الجزائرية المغربية.
- 48 هذه القرى تابعة إداريا لدائرة بني سنوس.
- 49 ينظر هذه المناطق خريطة تلمسان، ص 11
- 50 ينظر هذه المناطق الخريطة، ص 11
- 51 ينظر هذه المناطق خريطة تلمسان، ص 11
- 52 هذا حسب ما سمعته من أفواه الناطقين به في هذه المناطق.
- 53 إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 137.
- 54 ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص 30
- 55 كمال بشر، علم الأصوات، ص 386.
- 56 نفسه، ص 386.
- 57 عبد المجيد عابدين، من أصول اللهجات العربية في السودان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، د ط، ص 45-46.
- 58 إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 23.
- 59 ينظر جان كاتينو، دروس في أصوات العربية، ص 109.
- 60 هذا حسب ما سمعته من أفواه الناطقين به من سكان تلمسان المدينة.
- 61 هذا حسب ما سمعته من أفواه الناطقين به من سكان منطقة تلمسان المدينة.
- 62 ينظر جان كاتينو، دروس في أصوات العربية، ص 108.
- 63 التطور اللغوي للغة العربية، ترجمة د رمضان عبد التواب، مطبعة المجد، 1982، د ط، ص 28.
- 64 ينظر كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص 48.
- 65 أبو الطيب اللغوي، كتاب الإبدال، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق، 1961، د ط، ص 561.
- 66 نفسه، ص 261-262.
- 67 ينظر عبد الحميد بوسماحة، تلمسان، تاريخ وثقافة، منشورات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011، ص 104.
- 68 Voir Marcel Cohen, le parler arabe juifs d'Alger, p 26-29 .

69 كمال بشر، علم الأصوات، ص 284.

70 ينظر إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص 166-167.

71 نفسه، ص 132.

72 ينظر نفسه، ص 12.

